إنّها المجازفة الكبرى. وإنّها المجازفة المثلى تلك التي أقدم عليها أبوانا في الجنّة إذ جازفا بحياتهما ليعرفا الله ويصبحا إلهين مثله. وإنّها الرغبة الأصيلة في كيانهما ـ الرغبة الأمّ التي منها وإليها كلّ رغبة ـ دفعت بهما إلى مثل تلك المجازفة. أمّا أنّهما ما عرفا الله في الحال ولا صارا إلهين قادرين على كل شيء فما في ذلك ما يحطّ من قيمة مجازفتهما. وحسبهما نتيجة أن يعرفا أنّ الألوهة لا تذاق بالفم ولا تُسحن بالأسنان. ثمّ حسبهما أن يكتشفا أوّل الطريق المؤدي إلى المعرفة وهو طريق الخيبة والحزن والألم والموت ـ طريق اختبار النفس ـ طريق الخير والشر.

ليس قصدي من هذين المثالين أسوقهما لك من التوراة أن أحملك على الإيمان بقدسية ذلك الكتاب. فلا همّ لي أنظرت إلى التوراة نظرك إلى كتاب مُلهَم أم نظرت إليه نظرك إلى مجموعة من الأقاصيص والتآريخ والأمثال والإرشادات الروحيّة والزمنيّة. ولكنني وجدت في ذينك المثالين تزكية ـ وأكرم بها من تزكية ـ لعقيدة راسخة في ذهني وهي أن رغبة الإنسان في الوصول إلى الله ـ أي إلى المعرفة التامّة والمقدرة الكاملة والحرية القصوى ـ هي رغبة أصيلة وعميقة في كيانه. وهي الرغبة التي منها تتولّد وتتغذّى جميع رغباته. وهي التي تدفعه على السير بغير